الفصل الخامس

معالم رؤية الشيخ محمد عبده الإصلاحية التنويرية

«يقول قائلون : إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق ، فما بال المِلَّة الإسلامية قد مزَّقتها المشارب ، وفرَّقت بين طوائفها المذاهب ؟.. إذا كان الإسلام موحِّداً ، فما بال المسلمين عدَّدوا ؟.. إذا كان مولِّياً وجهَ العبد وجهةَ الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولُّون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا، ولا يستطيع - من دون الله - خيراً ولا شرًّا .. وكادوا يعدُّون ذلك فصلاً من فصول التوحيد؟».

الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص ١٩٦

obeikandl.com

obeikandl.com

نود فى هذا الفصل الإشارة إلى بعض الجوانب الفكرية والإصلاحية والتى تبدو تنويرية عند الشيخ الإمام . ولا بد فى البداية أن نشير إلى أننا قد نختلف مع الشيخ الإمام فى قليل تارة وفى كثير تارة أخرى من جهة بعض آرائه . ولكننا لابد أن نضع فى اعتبارنا أن العديد من آرائه لا نستطيع أن نتغافل عنها ، وخاصة فى العصر الذى نعيش فيه ، إنها آراء تعد داخلة فى مجال التنوير إلى حد واضح ، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا ما ساد عصره من نزعة تقليدية جامدة ، فكان يبغى الإصلاح عن طريق نزعة تنويرية تقدمية ، ومعنى هذا أنه كان سابقاً لعصره . وخاصة أننا نجد الآن مجموعة من الآراء والاتجاهات تعد داخلة فى ميدان التقليد وفى مجال الجمود .

وإذا كنا قد سبق لنا الحديث عن أكثر من رأى من آرائه التنويرية التقدمية ونحن بصدد دراستنا لمنهجه فى تفسير القرآن الكريم وفى دراساته لمجموعة من المشكلات التى تدخل إلى حد كبير فى مجال علم الكلام ، فإننا سنكتفى فى هذا الفصل بإيراد مجموعة من الشواهد على نزعته الإصلاحية التنويرية ، وسوف لا تتضح الصورة كاملة أمام القارئ إلا بعد حديثنا فى الفصل التالى والأخير ، عن آثار الشيخ الإمام .

ونود أن نقول إن الشيخ محمد عبده فى العديد من آرائه كان مجدِّداً وليس مقلِّداً ، ونكرر القول بأن المجدِّد هو من ينظر إلى أعلى وليس إلى أسفل ،

ولايكون متابعاً للآخرين ، وتكون مهمته غاية فى الصعوبة ، إنه يشق طريقه وسط الأشواك والصخور ، ولا يكون معتمداً على جهد السابقين والذين ذهبوا فى رأيه إلى آراء تقليدية شائعة ، بل يكون معتمداً على نفسه ، مجتهداً فى التوصل إلى مجموعة من الآراء التى قد يمثل القول بها صدمة لأهل التقليد والجمود . إن موقف المجدِّد كالشيخ محمد عبده يمثل الحركة لا السكون ، يمثل ديناميكية الموقف ولا يكون معبِّراً فى إستاتيكية عن الآراء الشائعة التى انتشرت بين أكثر الناس .

صحيح أن ثورة الشيخ محمد عبده لم تكن ثورة شاملة تقتلع الأشياء من أساسها ، ولكنها كانت ثورة من الداخل وليس من الخارج. والثورة من الداخل تعنى التجديد والإصلاح عادة . إنه يجدد من داخل التراث . حيث إنه لم يرفض التراث جملة وتفصيلاً ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أنه من الضرورى الإصلاح من الداخل ؛ لأن العيب ليس فى التراث ، بل فى الفهم الخاطئ للتراث . وإذن : فليقم بالتجديد أو الإصلاح من الداخل وليس من الخارج كما قلنا .

ونرى من جانبنا - وكما أكدنا على ذلك من خلال العديد من مواقفه الكلامية والفلسفية - أن أهم شىء التزم به إنما هو إيمانه بالتأويل ، تأويل النص الدينى ، وإيمانه بالتأويل قد أعطاه الفرصة لكى يقوم بالجانب الإصلاحى التنويرى . وربما يكون مستفيداً هذا الدرس من الفيلسوف ابن رشد وخاصة أن ابن رشد كان فقيهاً وقاضياً للقضاة بالإضافة إلى كونه فيلسوفاً من طراز نقدى تنويرى ممتاز . ولكن لا بد من أن نضع فى الاعتبار أن المشكلات التى واجهت ابن رشد ليست بالضرورة - بحكم العصر على الأقل - هى نفسها المشكلات التى واجهت الشيخ محمد عبده فى عصره ووطنه .

ونلاحظ أن الشيخ محمد عبده كان يدرك تماماً المشكلات الموجودة فى مجتمعه، وكان يتحسَّر حين يقارن بين مجد الإسلام فى الماضى ، وضعف المسلمين فى أيامه .

والدليل على ذلك أنه يذكر فى نص مهم فى الصفحات الأخيرة [1] من كتابه «رسالة التوحيد» ما يتردد من حسرة على واقع الأمة الإسلامية اليوم .

يقول الشيخ محمد عبده :

يقول قائلون : إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق فما بال الملة الإسلامية قد مزَّقتها المشارب ، وفرَّقت بين طوائفها المذاهب ؟

وإذا كان الإسلام موحِّداً فما بال المسلمين عدَّدوا ؟ وإذا كان مولِّياً وجهَ العبد وجهةَ الذى خلق السموات والأرض فما بال جمهورهم يولُّون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شرًّا ، وكادوا يعدُّون ذلك فصلاً من فصول التوحيد ؟

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان وأطلق له العنان، يجول فى ضمائرها بما يسعه الإمكان . ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ، ظنًّا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟

ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسَّمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل، أصبحوا مثلاً فى القعود والكسل ؟

ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم إليه فتركوه؟

إذا كان الإسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بيَّنت ، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟

إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنِّياً ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنِّياً ؟

---

(١) رسالة التوحيد ،ص ١٩٦ وما بعدها .

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدُّوهما إلى أغلال أىّ أغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يُضرب بهم المثل فى الظلم؟

إذا كان الدين فى تشوُّف إلى حرية الأرقَّاء ، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار؟

حاول الشيخ محمد عبده الإصلاح مااستطاع طوال حياته الحافلة بالمشكلات التى لا حصر لها . قدم العديد من الآراء التى تستند إلى التأويل - كما قلنا - ولم يكن مجرد متابع للآخرين . ولعل مما يدلنا على ذلك الفتاوى العديدة التى قدمها رغبة منه فى إصلاح أفراد البشرية . وهذه الفتاوى -وكما سبق أن أشرنا فى فصل سابق - تعد معتمدة فى كثير من جوانبها على إيمانه بالتأويل .

لقد قام بنقد مناهج التعليم التى كان يتم تدريسها بالأزهر فى زمانه ، نقدها نقداً عنيفاً بغية الإصلاح والوصول إلى حالة أفضل. يقول الدكتور عثمان أمين[1] : لقد أعرض الشيخ محمد عبده عن العلم المدرَّس المشوَّش ، ملتفتاً إلى دراسة العقل الإنسانى فى نشاطه الحر . لا فيما قيد به من أغلال ، وواضعاً نصب عينيه الفكر الحىّ الشخصى ، لا الفكر الميت المحنَّط المحفوظ فى تصورات ومجردات.

وقد دافع الشيخ محمد عبده عن حرية الفكر ، إذ الكافر هو المعاند الجامد الذى إذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه وإذا سمع الحرف من كلمة سد أذنيه . ذلك الذى لا يبحث فى دليل بعد عرضه عليه ، ولا يذعن لحجة إذا اخترقت فؤاده ، بل يدفع جميع ذلك حباً فيما وجد نفسه مع الكثير ممن حوله واستند فى التمسك به إلى تقليد من سلفه [2] .

---

(١) رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، ص ٦٣ .

(٢) يمكن الرجوع إلى تفسيره لجزء «عم» على سبيل المثال .

كما نجده مهتمًّا بدراسة علوم لم تكن شائعة فى عصره . كالمنطق على سبيل المثال ، وكان مستفيداً من ابن سينا وابن رشد ، وقام بشرح العديد من الكتب المنطقية وكتب عليها الحواشى والشروح.

نقد مسلك بعض الفقهاء نقداً عنيفاً ، كما سبق أن وجه إليهم النقد الكندى والغزالى فى المشرق العربى ، وابن رشد فى المغرب العربى . وإذا كان يحدث للناس باختلاف الزمان أمور ووقائع لم يرد ذكر لها فى كتب الفقه ، فماذا نفعل ؟ هل نوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟ هذا لا يستطاع ، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها .

يقول الشيخ محمد عبده [١]:

إن العاميّ الذى يحتاج إلى الكسب والعمل لا سعة عنده لصرف سنين طويلة فى تعلُّم أحكام الطهارة وسائر العبادات فى الأزهر من هذه الكتب الضخمة الصعبة ، وأىّ حاجة إلى هذه الأبحاث الطويلة والتدقيقات المسرفة فى مسائل المياه والطهارة والصلاة ؟

حاول الشيخ محمد عبده إصلاح التعليم الدينى ، بعد أن وصل إلى حالة يُرثَى لها ، فإذا رجعنا إلى تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا [٢] وجدنا الشيخ محمد عبده يسجل فى مشروعه الذى كتبه وهو فى المنفى ببيروت ، ما يؤدى إليه الجهل بالدين من نتائج غاية فى السوء .

يقول الشيخ محمد عبده :

وبالجملة فإن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شغل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا مَنْ عَصَمَ الله ، وهم قليلون ؛ ولهذا تراهم يفرُّون من الخدمة العسكرية ؛ ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهى من أهم الفروض الدينية

(١) تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا فى مواضع مختلفة من الجزء الأول ، وراجع أيضاً كتاب الدكتور عثمان أمين عن الشيخ محمد عبده ، ص ٨٠ وما بعدها وفى مواضع متعددة .

(٢) الجزء الثانى .

المطلوبة منهم ، نرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام فى سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة فى دينهم . بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الحال إلى مساعدة الدولة والإنفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى فى سائر الأمم ! هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل ، فلا يعرفون رابطة يرتبطون بها ولا يهتدون إلى جامعة يلجأون إليها ، وتقطَّع ما بينهم ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [سورة الحشر : ١٤] .

وقف الشيخ محمد عبده موقفاً غاية فى التحفظ من موضوع الكرامات وقد انتشر الاعتقاد بها فى زمانه ، فذهب إلى نقد القول بها من منطلق إيمانه بالسببية ، والعلاقات بين العلل والمعلولات .

يقول الشيخ محمد عبده فى الصفحات الأخيرة من « رسالة التوحيد » [1]:

أما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبىّ مما تتناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء ، وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السُّنَّة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولىّ لله معيَّن بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أىّ كرامة كانت من أىّ ولىّ كان ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشىء من أصول الدين ولا مائلاً عن سُنَّة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم . اللهم إلا أن يكون مما صح فى السُّنَّة عن الصحابة .

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء ؟ وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون .

---

(١) ص ٢٠٧ .

والواقع أن النزعة التنويرية عند الشيخ الإمام قد امتدت إلى موضوعات لاحصر لها . لقد قال رأيه من منطلق تنويرى فى مئات المشكلات الاجتماعية . وإذا رجعنا إلى تفسير الأستاذ الإمام وإلى الفتاوى ، وجدناه يبذل كل جهده ، ومن منطلق التأويل ، فى أن يقدم لنا حلولاً للعديد من المشكلات ، ومن خلال رؤية نقدية .

ونشير إلى مجرد مثال من الأمثلة ، وهو رأيه فى تعدد الزوجات ، وذلك من خلال محاولة إصلاح نظام الأسرة المصرية . ومن خلال نظرته التأويلية ، إننا نجده فى «تفسير المنار» يقول : كان للتعدد فى صدر الإسلام فوائد : أهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية . ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ؛ لأن الدين كان متمكناً فى نفوس النساء والرجال ، وكان أذى الضُّرَّة لا يتجاوز ضُرَّتها . أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضُرَّة إلى ولدها ، وإلى والده ، وإلى سائر أقربائه: فهى تغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو - بحماقة - يطيع أحب نسائه إليه ، فيدب الفساد فى العائلة كلها .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الإمام لرشيد رضا ، وجدناه يقول : فهذه معاملة غالب الناس عندنا ، من أغنياء وفقراء فى حالة التزوُّج بالمتعددات ، كأنهم لم يفهموا حكمة الله فى مشروعيته ، بل اتخذوه طريقاً لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقى منه : وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل . فاللازم عليهم حينئذ ، إما الاقتصار على واحدة ، وإذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد ، عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [سورة النساء: ٣] وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل . وحفظ الألفة بين الأولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة ؛ ولا يحملوهن على الإضرار بهم وبأولادهم ؛ ولا يطلقوهن إلا لداعٍ ومقتضٍ شرعى ، شأن الرجال الذين يخافون الله ويُؤْثرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ، ويفارقونهن عند الحاجة .

يقول الدكتور عثمان أمين [1] بعد دراسته لرأى الشيخ محمد عبده : جملة القول أن الأستاذ الإمام كان ينكر أشد الإنكار تعدد الزوجات ، إذ كان يعلم ما ينتج عنه من فساد فى العلاقات الزوجية التى تقوم على نظام يمحو الثقة بين الرجل والمرأة ، ويوغر صدور الضرائر بالأحقاد . وينقل جراثيم العداوة منهن إلى أبنائهن وبناتهن وعشيرتهن - ولم يكن يخفى على الأستاذ الإمام مبلغ الأضرار التى تلحق بمجتمع يسود التباغض أفراده وبيوته وأسراته ؛ وكان يشفق على أمته من ضعة المكانة التى تنزل إليها التربية إذا بقيت على ذلك الأساس . فلم يكن بدعاً أن يرى ذلك المصلح فى الإكثار من الزوجات خروجاً عن جوهر الشريعة الخالصة : على ما فيه من مطاوعة الهوى ، واستفراغ شهوات البدن ، والميل مع النزوات الحيوانية ، التى تنكرها الأخلاق الإنسانية العليا ، وينبو عنها الضمير الحى السليم .

هذا يدلنا على أن الشيخ محمد عبده ومن منطلق نقدى تأويلى تنويرى ، وفى محاولة من جانبه لتجديد الفكر الدينى ، كان حريصاً على إبداء رأيه حول مئات الموضوعات الدينية والاجتماعية . ولعل مما ساعده على ذلك المناصب الدينية التى تولاَّها ، والخبرات الطويلة التى مر بها . لقد جمع الشيخ محمد عبده بين الجانب النظرى والأبعاد العملية والإصلاحية والاجتماعية .

لقد كانت حياة الشيخ محمد عبده غاية فى الثراء الفكرى والنشاط الثقافى الاجتماعى . وهذا الثراء الفكرى ومن منطلق نقدى تنويرى نجده واضحاً غاية الوضوح طوال السنوات التى عاشها سواء فى مصر أو فى فرنسا حين عمل مع أستاذه جمال الدين الأفغانى على تأسيس الصحيفة الأسبوعية المعروفة باسم «العروة الوثقى» والتى كان هدفها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والدفاع عن الشرقيين ، بالإضافة إلى محاربة التسلُّط والظلم والطغيان والدعوة إلى التخلُّص من الاحتلال الإنجليزى ، وكانت هذه الصحيفة أول صحيفة عربية تظهر فى

(١)راجع كتابه : رائد الفكر المصرى الشيخ محمد عبده ، ص ٢٠٩ .

أوربا . لقد كان شيخنا يعمل دون كلل أو ملل وكانت له رؤيته النقدية وآراؤه الإصلاحية الجريئة والتى يعبر أكثرها عن رؤية تنويرية .

لقد ترك لنا العديد من الآراء التى تجعله - كما أشرنا منذ قليل - مجدِّداً من الطراز الأول ومفكراً لا تخلو كتاباته من الروح الفلسفية وليرجع القارئ إلى موضوعات كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » وإلى دراسته لمشكلات فلسفية وفكرية لا حصر لها : كمشكلة الحرية ومشكلة الخير والشر وإلى آرائه فى مجال الإصلاح الأخلاقى وتفسير القرآن الكريم ، وإصلاح الأزهر ، وسيجد ذلك كله واضحاً غاية الوضوح .

نقول ونكرر القول بأن الإمام محمد عبده قد ترك لنا - كما سنبين فى الفصل التالى - مدرسة فكرية ليس فى مصر وحدها ، بل فى العديد من البلدان العربية والإسلامية ، وكم نجد آراءه تتردد بلا انقطاع وحتى أيامنا الحالية عند كثير من مفكرينا شرقاً وغرباً وبصورة مباشرة تارة وغير مباشرة تارة أخرى . وهذا إن دلنا على شىء فإنه يدلنا على بصماته القوية على خريطة فكرنا العربى ورؤيته الإصلاحية ، ومن يحاول إهمال أو تغافل دوره الخلاَّق المبدع فإن وقته يعد ضائعاً عبثاً .

وآراء الشيخ محمد عبده تدلنا بوضوح - كما أشرنا - على أن مفكرنا كان صاحب نظرة تجديدية ، والمجدِّد ينظر دائماً إلى الأمام وإلى المستقبل ، وذلك على العكس من المقلِّد والذى ينظر إلى الماضى ويبكى على الأطلال .

إن النظرة التجديدية لا تقوم على رفض التراث جملة وتفصيلاً ، ولا تقوم أيضاً على الوقوف عند التراث كما هو دون بذل أية محاولة لتأويله وتطويره ، بل إن النظرة التجديدية تعتبر معبرة عن الثورة من داخل التراث نفسه ، إنها إعادة بناء التراث بحيث يكون متفقاً مع العصر الذى نعيش فيه .

فالتجديد - إذن - هو إعادة بناء Reconstruction ، ولا يعد التجديد تمسكاً بالبناء القديم لمجرد أنه قديم وبصورة تقليدية ، كما لا يحمل فى طياته هدماً أو

رفضاً مطلقاً للتراث ، إذ قد نجد فى التراث العديد من الأفكار البناءة والتى تعد أكثر حيوية من بعض آراء المعاصرين .

إننا نجد الدعوة إلى إعادة البناء واضحة تمام الوضوح عند الشيخ محمد عبده ، وهذا يدلنا على أن الإمام محمد عبده إنما كان يدرك تمام الإدراك أن العيب ليس فى التراث ، ولكن العيب فى النظرة إلى التراث من خلال منظور تقليدى رجعى لا يتناسب مع العصر .

يجب - إذن- أن نضع هذا فى اعتبارنا حتى نستطيع إدراك الجهد الكبير الذى قام به الإمام ، ويكفى الشيخ محمد عبده فخراً أنه كان من خلال كتبه ورسائله مدافعاً عن العقل إلى حد كبير ، فالعقل يعد أشرف جزء فى الإنسان ، والذى عن طريقه استطاع مفكرنا تأويل النصوص الدينية تأويلاً معبراً عن الاجتهاد وسعة الاطلاع والرغبة فى اكتشاف الحقيقة .

نجد هذا - كما سبق أن أشرنا - واضحاً غاية الوضوح فى العديد من الكتب والرسائل التى تركها لنا محمد عبده ومن بينها مقالاته فى « العروة الوثقى » ، وحاشيته على شرح الدوانى لكتاب العقائد العضدية للإيجى ، ورسالة التوحيد، وتقرير فى إصلاح المحاكم الشرعية ، والإسلام والرد على منتقديه ، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، وحديثه الفلسفى مع الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر ، وتفسيره لسورة العصر وسورة الفاتحة ، وتفسير جزء عَمَّ ، وتفسير المنار - الذى أكمله رشيد رضا - ودروس دار الإفتاء .

لقد خاض محمد عبده الكثير من المعارك الفكرية من أجل التجديد وكان له من الأعداء مثل ما له من الأصدقاء ، وكان هذا شيئاً متوقعاً إذ أننا فى كل عصر وكل مكان إذا كنا نجد دعاة للنور ، فإننا نجد أيضاً خفافيش الفكر ، والذين يُؤْثرون الظلام ولا تقوى أبصارهم على مواجهة النور والضياء ، وإذا كنا نجد دعاة للإصلاح والتجديد والتقدم إلى الأمام ، فإننا نجد أيضاً الدعوة إلى الجمود والانغلاق والرجعية والصعود إلى الهاوية . وإذا كنا نجد أناساً من المفكرين فى

هذا العصر أو ذاك يطلبون منا التمسك بالعقل وجعله المرشد والدليل فى حياتنا والاعتصام بالعلم ، فإننا نجد بجوراهم أهل الخرافة والأسطورة والشعوذة واللاعقلانية .

ونود فى آخر دراستنا لموضوع هذا الفصل أن نقف وقفة قصيرة عند بعض الموضوعات التى نجدها فى كتابه « الإسلام دين العلم والمدنية » ..

لقد تضمَّن كتابه «الإسلام دين العلم والمدنية» العديد من الموضوعات الحيوية المهمة ، وأثار حولها العديد من التساؤلات والقضايا والأفكار والتى نجد أنفسنا حتى اليوم فى حاجة إلى التعرف عليها والاستفادة منها .

يبحث محمد عبده فى موضوع «الدين والمتدينون» (١) ويبين لنا أن الله خلق الإنسان عالماً صناعيًّا ، وهو يعنى بذلك أثر البيئة على الإنسان ، وأيضاً التركيز على أهمية الإرادة الإنسانية وكيف أن الإنسان صنيعة أعماله ، إنه يقول إن الإنسان لو ترك العمل ساعة من الزمن وبسط كفيه للطبيعة ليستجديها نَفَساً من حياة ، لما أمكنه ذلك ، بل دفعه إلى هاوية العدم ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق ونحن نتحدث عن موضوع حرية الإرادة .

ونحن فى عالمنا العربى فى أمسِّ الحاجة إلى التأكيد على أهمية هذا الرأى الذى يقول به محمد عبده والذى يقترب إلى حد كبير من رأى المعتزلة فى موضوع حرية الإرادة ، والبحث فى مشكلة القضاء والقدر . لقد شاع بيننا الاتجاه الجبرى، اتجاه التواكل والاستسلام ونسبة كل شىء إلى قوى تفوق الطبيعة ، ولا يخفى علينا دور بعض الأنظمة السياسية التى تقوم على تدعيم الاستبداد والدكتاتورية ، فى نشر هذا الاتجاه الجبرى ، وأيضاً دور بعض رجال الدين فى التركيز على الدعوة إلى التواكل والنظر إلى الإنسان وكأنه لا حول له ولا قوة .

أليس من المؤسف أن المسلمين الآن قد فقدوا الاهتمام بالبراعة فى فنون

(١) يمكن الرجوع إلى دراستنا النقدية لهذا الكتاب ، وأيضاً إلى كتابنا : العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر ، الفصل الخاص بالشيخ محمد عبده .

القتال واختراع الآلات وسبقتهم الأمم الأخرى ، حتى وصل الأمر إلى أن أبناء الديانة التى تسعى إلى المسالمة قد اخترعوا آلات الحرب الدقيقة ، فى حين أننا لا نجد هذا عند أبناء الديانة التى تدعو إلى طلب القوة والاستعداد للحرب ؟!

لقد بيَّن لنا الشيخ محمد عبده - ومن منطلق تنويرى إصلاحى- أن الإسلام قد أطلق العنان للعقل ، ولا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب.

ونود أن نشير من جانبنا إلى أن ذكر هذه العبارة فى استدلال محمد عبده على أهمية النظر بالعقل يرتبط بما ذهب إليه فى موضوع حدوث العالم وقِدَمِهِ ، إذ أن محمد عبده لم يذهب إلى تكفير القائلين بقِدَم العالم كما فعل الغزالى وابن تيمية ، بل إنه قال بخطأ رأيهم ، إذ أنه قال إن الذين بحثوا فى هذه المشكلة ، مشكلة هل العالم يعد حادثاً بمعنى أن الله تعالى خلقه من العدم ، أم أنه يعد قديماً ، بمعنى وجوده من مادة أزلية ، وقد ذهب فريق منهم إلى القول بحدوثه ، وهم على صواب فى رأيهم كما يذهب محمد عبده ، وذهب فريق آخر - وهم الفلاسفة أساساً أو أكثرهم- إلى القول بأن الله تعالى أوجده من مادة أولى قديمة ، وهم على خطأ فى قولهم .

ومن الواضح أن رأى محمد عبده فى قول الفلاسفة بالقِدَم ، ومن بينهم الفارابى وابن سينا يختلف عن اعتقاد الغزالى بأن الفلاسفة قد كفروا فى قولهم بقِدَم العالم . وهذا إن دلنا على شىء ، فإنما يدلنا على المنطلق التنويرى للشيخ محمد عبده .

ومن الواضح أن محمد عبده يتجه إلى حد كبير اتجاهاً اعتزاليًّا ، أى : يشبه موقفه موقف المعتزلة ، وذلك حين يبين لنا فى الأصل الأول للإسلام كيف أن الأساس الذى وضع الإسلام عليه هو النظر العقلى ، وأن النظر هو وسيلة الإيمان الصحيح ، كما ذكر فى دراسته للأصل الثانى بأنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، بمعنى تأويل النص الدينى .

أما الأصل الثالث ، فإنه يعد بدوره من الأصول المهمة ، والذى نحن الآن فى أمسِّ الحاجة إليه ، وخاصة بعد شيوع أحكام التكفير ، والتى يصدرها أناس يتصفون بسلاطة اللسان ولديهم نوع من الإسهال فى إصدارالأحكام بالكفر على من يخالف هذا الرأى أو ذاك من الآراء، التى يقولون بها ويجزمون بصحتها ولا يقبلون مناقشة من يختلفون معهم فى آرائهم ، وأصبحنا نسمع الآن عن جماعات تسمى بجماعات التكفير و الهجرة . هذه كلها مبادئ يكشف عنها ويقوم بتحليلها مفكرنا الشيخ محمد عبده خلال دراسته لأكثر من أصل من أصول الإسلام .

وتأكيداً على الدفاع عن الإسلام والاعتقاد بأن الدين يجب ألاَّ يكون معزولاً عن المجتمع فيما يرى محمد عبده أثناء دراسته للأصول التى سبق أن أشرنا إليها، فإننا نجد الشيخ محمد عبده فى دراسته آخر الأصول وهو الأصل الذى يتمثل فى الجمع بين الدنيا والآخرة ، يعطينا العديد من الأمثلة التى تدلنا على كيفية النظر إلى الآخرة من خلال الدنيا ، والنظر إلى الدنيا بعيون الآخرة - إن صح هذا التعبير . إن أوامر الدين إذا كانت تطلب من العبد الاتجاه إلى ربه وتملأ قلبه بالرهبة وتعطيه الأمل فى الرغبة ، فإنها لا تحرمه من التمتع بالدنيا ، بل تطلب منه الوقوف موقفاً معتدلاً .

ومن الواضح أن محمد عبده فى تركيزه على أهمية الربط بين الدنيا والآخرة ودعوته إلى التمتع بالدنيا ، إنما يدلنا على أنه لا يرتضى لنفسه آراء الصوفية ولا اتجاه الزُّهَّاد والعُبَّاد حين يهملون الدنيا فى سبيل الآخرة ، بل إن محمد عبده يبين لنا فى أواخر دراسته لهذا الأصل - أصل الجمع بين الدنيا والآخرة - أن المسلم لا يمكنه أن يشكر الله حق شكره إلا إذا وقع العالم بأسره تحت فكره واستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه . إنه لا شىء عند الإنسان ألذ من كشف المجهول والوصول إلى المعقول ، وعلى الفرد أن يسير فى مملكة العلم ليمتع عقله، كما ينتشر فى الأرض ليكسب رزقه ويطعم أهله .

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد بحث فى أصول الإسلام ، وبين لنا من خلال بحثه فى أكثر من أصل من تلك الأصول ، أن الإسلام يدعونا إلى النظر والتفكُّر، فإننا نجده يبين لنا كيف اهتم المسلمون والعرب اهتماماً لا حدَّ له بالعلوم الأدبية ، وبعد مرور عشرين عاماً على وفاة الرسول ﷺ ، كما اهتموا بالعلوم الكونية وخاصة فى أيام الدولة العباسية عند أمثال المنصور وهارون الرشيد والمأمون ، كما اهتم المسلمون بإنشاء دور الكتب سواء فى بلدان المشرق العربى أو فى بلدان المغرب العربى ، بالإضافة إلى إنشاء المدارس للعلوم والتى انتشرت فى كل الأقطار ، فى بلاد المغول والتتار من جهة المشرق ، وفى مراكش وفاس من جهة المغرب ، كما يشير إلى أهمية العلوم العربية ، وكيف كان علم العرب فى أول الأمر يونانياً ثم أصبح عربياً ، وأن أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجارب ، وألَّا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة.

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد حلَّل - كما قلنا - موضوع اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية ، فإننا نجده يبحث أيضاً فى موضوع «الإسلام فى أوائل القرن العشرين » ونود أن نقف قليلاً عند الخطوط الرئيسية فى حديث محمد عبده عن هذا الموضوع ، وذلك حتى ندرك بعداً آخر من أبعاد فكره التجديدى التنويرى النقدى .

يبين لنا الشيخ محمد عبده أنه لا يصح الاحتجاج بآراء وأفعال بعض المسلمين على الإسلام ، هذا هو محور هذا الفصل والذى يعد من الفصول المهمة، إذ يكشف عن صراحة الإمام محمد عبده ورغبته فى الإصلاح ، والدليل على ذلك أننا نجده لا يتردد فى نقد سلوك كثير من المشايخ القدامى منهم أو الذين عاصروه ، والقارئ لهذا الفصل يشعر بصدق الإمام محمد عبده وبعد نظره فى العديد من الآراء التى قال بها كمحاولة من جانبه للدفاع عن الإسلام

واستمراريته خلال القرون التالية ، إنه يتكلم فى عبارات مليئة بالأسى والحزن عما وصل إليه حال المسلمين اليوم فى بعض الأقطار الإسلامية . ويذكر العديد من الأحداث والروايات التى تدلنا على جمود بعض المشايخ ومن تابعهم . وكيف أن هذا الجمود إذا استمر فإنه لن يكون فى صالح الدين ، بل سيكون من أسباب عدم تآخيه مع روح العصر الحديث .

إننى أدعو القارئ إلى التأمل فى كل الأفكار التى قال بها الإمام محمد عبده بين ثنايا هذا الموضوع ، وسيجد أكثرها يصلح أن يكون منهجاً أو دستوراً يجب أن نسير عليه اليوم . بل إنها ستؤدى إلى أن يكون حالنا أفضل بكثير من أحوالنا فى الأمس القريب والأمس البعيد أيضاً .

يبين لنا محمد عبده فى هذا الفصل أن سلوك بعض المسلمين المعادى للعلم والفلسفة بوجه عام لا يصح أن يُتخذ دليلاً على أن العيب فى الدين . لقد كان ينشر بالجرائد - فيما يقول محمد عبده - العديد من المقالات التى تستهجن إدخال علم الجغرافيا التى يتلقاها طلبة الأزهر . وكان كُتَّاب تلك المقالات يقومون بالهجوم على من أشار بإدخال هذا العلم وغيره من تلك العلوم التى تدرس بالأزهر ، ومن الواضح أن محمد عبده يشير إلى نفسه لأنه من أنصار تعليم هذه العلوم ، ولقد وجدت آراؤه معارضة شديدة من جانب بعض المشايخ الذين هم أعداء لكل مخالف لما هم عليه من التقليد والتزمُّت . إنه إذا قيل لطلبة الأزهر أنه ينبغى دراسة بعض مبادئ الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، فإن هؤلاء المشايخ - فيما يقول محمد عبده - يصيحون أجمعين : هذا عدوان على الدين . هذا تغرير بأهله المساكين .

والواقع أننا نجد عند مفكرنا الشيخ محمد عبده فى هذا المجال دعوة إلى الانفتاح على العلوم الأخرى ، حتى لو كانت من العلوم غير الدينية ، أى : غير المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالعلوم الدينية الشرعية ، وهذه الدعوة من جانب محمد عبده تعد دعوة ممتازة رائعة ؛ إذ نلاحظ أن بعض الشيوخ ومن جاراهم وحتى

يومنا هذا للأسف الشديد ونحن فى القرن الواحد والعشرين يقومون بالهجوم على العلم والحضارة القائمة على العلم . إنهم يتناقضون - فيما أرى - تناقضاً شديداً ، إنهم يهاجمون الحضارة وفى نفس الوقت يكونون من أكثر المستفيدين من الحضارة ؛ وذلك حين يستخدمون الميكروفون مثلاً وهو ثمرة من ثمرات العلم والحضارة .

فهل تجدون أيها القراء الأعزاء تناقضاً أكثر من هذا التناقض ؟ بل إننا إذا كنا نجد اليوم أناساً يدعون إلى الوقوف عند التراث فى مجالات الطب والطبيعة وغيرها ، فإن هذه الدعوة من جانبهم تدلنا على نوع من القصور فى أفهامهم ؛ إذ أن كتب التراث لا تستطيع أن تهدينا إلى اختراع من الاختراعات العلمية ولا دور لها فى التطبيقات التكنولوجية ؛ لأن العم اليوم كَمٌّ ، وكَمٌّ فقط ، فى حين أن العلوم قديماً قد استندت إلى محاور كيفية .

والواقع أن القارئ لكتابات الشيخ محمد عبده يشعر بغيرة الإمام على الإسلام ودفاعه عنه دفاعاً مجيداً . إنه - كما قلنا - يحارب التقليد والجمود محاربة شديدة ، ويرى أ ن الجمود عند النص الدينى هو الذى أدى بالمسلمين إلى التأخر وعدم اللحاق بالأمم الأخرى ، ولا شك أن محمد عبده كان على علم شامل ودراية تامة فى تحديده لأوجه قصور المسلمين وأوجه العلاج أيضاً . إنه كرجل دين على الأقل ، يعد واعياً تماماً بأصول الدين من جهة ، وسلوك بعض المسلمين ورجال الدين من جهة أخرى ، هذا السلوك الذى يراه مبتعداً تماماً عن الدين كما ينبغى أن يكون الدين ، الدين الذى فهمه الأسلاف فهماً عميقاً جيداً ، فى حين أساء إليه نفر من المتأخرين أصحاب العقليات المظلمة الجامدة المغلقة .

ونود أن نقول فى نهاية دراستنا لموضوع هذا الفصل إن أكثر الآراء التى تركها لنا مفكرنا محمد عبده تدلنا - وكما سبق أن أشرنا - على أنه كان سابقاً لعصره ، تدلنا على أنه كان يتمتع بعقلية نقدية دقيقة من النادر أن نجد لها مثيلاً . وكم نجد فى كتبه من الدروس التى نحن فى أمسِّ الحاجة إليها الآن ، رغم مرور أكثر من قرن من الزمان على وفاته ، فإن كل الظواهر التى نشاهدها الآن ونحس

بها تدلنا - إذا ابتعدنا عن التفاؤل الساذج والتزمنا الموضوعية - على أن عالمنا العربى يتأخر إلى الوراء ولا يتقدم خطوات إيجابية ملموسة نحو ما هو أفضل ، نحو ما يعد ضرورياً لنا حتى نواكب روح الحاضر وروح المستقبل . لقد أسرفنا فى المناقشات اللفظية العقيمة التى تعد كالأرض القاحلة الجدباء كوادٍ غير ذى زرع ، فهمنا العلم فهماً خاطئاً واكتفينا بالتغنِّى بالماضى والبكاء على الأطلال ، فعلينا - إذن- دراسة أفكار الإمام محمد عبده والتى صدرت عن نفس مؤمنة وعقل مفتوح ..

إن أفكاره ما تزال حية ، فهل يدرك هذا أهل الجهل والتقليد الذين يريدون لنا الصعود إلى الهاوية وبئس المصير ؟ لقد قال بالعديد من الآراء من خلال فكر تجديدى تنويرى خلَّاق ، ومن هنا فإننا نجد استمرارية لهذه الآراء فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية . إنها أفكار تدعو إلى البناء ، تدعو إلى القوة ، وذلك حتى نجد مستقبلنا أفضل من ماضينا وحاضرنا .

إنها أفكار تدعو إلى التنوير وليس إلى الظلام . ونعلم جميعاً أن الظلام يرتبط بالعدم والفناء، فى حين يرتبط النور بالوجود والحياة ، ولا أحد منا يرضى لنفسه أن يكون كالخفافيش التى تعيش فى الكهوف المظلمة . نقول هذا ولا نمل من تكرار قوله ، مادمنا نجد على أرضنا الثقافية وفى دنيانا الفكرية من يفسد فيها ، وذلك لأنهم لا يعلمون .

* * *